

وإنَّ الرزق بيد الله يؤتیه من يشاء. ولكن علياً أعاد مثل هذا الحديث على مسعود، فغضب مسعود حتى اضطربت لحيته، ورقَّ مسعود حتى انهلت دموعه، ثم قال لصاحبه: أترید أن أشكوك إلى الشيخ؟! هنالك اضطرب علي بعض الاضطراب وظهر على وجهه الخجل، وقال: وددت لو يستطيع الشيخ أن ينساني. قال مسعود: هيهات! ليس إلى ذلك سبيل، إنه ليذكرك في كل يوم، وإنه يستحيي أن يدعوك. قال علي: يستحيي أن يدعوني وأستحي أن أزوره! وهو يذكرني في كل يوم وأنا أذكره في كل ساعة! ما كنت أحسب أن الدهر يفعل بالناس مثل ما فعل به وبني. قال مسعود: لم يفعل بكما الدهر شيئاً، وإنما أنت أسأت إلى الشيخ وأسأت إلى نفسك، إنك لا تحسن احتمال المحنة ولا الثبات للخطب، إنَّ مال الله غادٍ ورائح، يصبح الإنسان غنياً ويمسى فقيراً، وإنَّ الرجل الكريم هو الذي يحسن احتمال الفقر كما يحسن احتمال الغنى، وقد عرفت كيف تحتل الغنى فكنت خيراً جواداً، تُواسي الضعيف، وتُطعم الجائع، وتكسو العاري، وتُعين على نوائب الدهر، ولكنك لم تحسن احتمال الفقر، فاستحييت وليس في الفقر حياء، واستخذيت وليس في الفقر استخذاء، إنك حين تستخفي بفقرك وتتكلف ما تتكلف من الجهد لا تزيد على أن تلوم الله؛ لأنه هو الذي يُغني ويُفقر، والله لا يَلام ولا يُسألُ عما يفعل؛ وإنما نحن الذين يُلامون ويُسألون عما يفعلون. أترید أن تسمع لي وتقبل نصيحتي؟ قال علي وهو ينتحب: وما ذاك؟ قال الحاج مسعود: نصلي العصر معاً ثم نسعى إلى الشيخ؛ فإنك إن استأنفت لقاءه والأنس إلى مجلسه لم تعد إلى مثل ما أنت فيه الآن. ولم يقبل الليل حتى كان علي في مجلس الشيخ كدأبه قبل أن تلم به المحنة، وكدأبه في مجلس الشيخ الكبير. على أنَّ العام لم ينته حتى أَلَمَّ الموت بدار عليٍّ، فانتزع منها امرأة كانت أشوق ما تكون إليه وأزهد ما تكون في الحياة، ردَّ أم نفيسة إلى زوجها عبد الرحمن في الدار الآخرة، وكان هذا الموت آية لعليٍّ أثبتت له أنَّ فقره ومحنته لم يُغيِّرا من مكانته في المدينة شيئاً؛ فقد هرع أهل المدينة كلهم إلى دار علي يؤاسونه ويشيعون جنازته، ويتقدمهم الشيخ، وكان الأسبوع الأول لوفاة هذه المرأة الصالحة أسبوعاً حافلاً في دار عليٍّ، قرئ فيه القرآن كأحسن ما يُقرأ في أكثر الدور ثراءً وغنى، وأقام الشيخ فيه بنفسه حلقة الذكر مرات. وقال علي لنفسه غير مرة: صدق الحاج مسعود! إنَّ الرجل الكريم هو الذي يحسن احتمال الفقر، كما يحسن احتمال الغنى، ولكن علياً منذ ذلك الوقت قطع على نفسه عهداً ليستأنفن حياة أخرى فيها جد كثير، وزُهد في اللذات، وانصراف عن متاع الدنيا، وقناعة بما قسم الله له من الرزق.